

• الفصل الأول

الجرح الخفى

لوحة القربان «التقديم»

فى عام ١٧٧٨ ، نصب مديرو شركة الهند الشرقية الإنجليزية لوحة زيتية جديدة باهظة الثمن فى مقر شركتهم بلندن «دار الهند الشرقية» . ومثل الكثير من الأعمال الفنية المماثلة ، قبل ومنذ ذلك التاريخ ، كان مستوى اللوحة متواضعاً ، إذ يصفها أحد المعلقين بأنها «عمل أضعف من أن يمنح أى رصيد للفنان الذى رسمه ولا لمن كلفوه به»^(١) ، ولكن المديرين لم يكونوا ينشدون استحسان القيمة الفنية للمهمة التى أكلوها للفنان ؛ فتلك اللوحة التى يبلغ عرضها ١٠ أقدام ويبلغ ارتفاعها أكثر من ثمانية أقدام ، والتى يعرض فيها الرسام سبريدون روما^(*) لوحته المجازية العملاقة عن «الشرق يقدم ثرواته لبريطانيا» ، كانت مصممة لتترك بصمة فى ذهن من يراها (انظر الشكل ١ - ١) . لقد كان غرض لوحة القربان «التقديم»^(**) المثبتة فى سقف غرفة لجنة عائدات الشركة ، حيث كان المديرون يراقبون مسار الأرباح والخسائر ، غرضاً بسيطاً وهو : أن تنقل للمشاهد السيادة التجارية التى حققتها الشركة فى ذلك الحين فى آسيا .

نجد فى قلب اللوحة علاقة بين ثلاث نساء كل منهن تمثل بلدها ، والمشهد ساحل آسيوى ، ونجد بريطانيا الجميلة جالسة على صخرة فى أعلى يسار اللوحة ناظرة لأسفل إلى الهند الجاثية على ركبتها تقدم تاجها المحاط بالياقوت واللاوى وهى مطأطئة رأسها ، وإلى جانبها الصين على ركبتها أيضاً ، وناظرة إلى أسفل فى استكانة وخضوع ، تقدم جزيتها الخاصة من الخبز والشاى ، ومن بستان من

(*) سبريدون روما فنان إيطالى من القرن الثامن عشر - (الترجم) .

(**) سوف يشار إلى لوحة «الشرق يقدم ثرواته لبريطانيا» من الآن فصاعداً باسم لوحة القربان «التقديم» - (الترجم) .

أشجار النخيل على يمين اللوحة تأتي قافلة من العمال يحملون بالات من القماش إلى جانب فيل وجمل ، جميعهم يوجههم غربا عطاردا الحازم ، إله التجارة الكلاسيكى . ويجلس الأسد البريطانى عند قدمى بريطانيا ، مثلما يرقد أبوها التايمز الكبير ، علامة على أن الكثير من تلك الثروة كان سوف يتدفق إلى لندن^(٢) . وبعيدا عن تلك المجموعة ، خلف أولئك الأشخاص إحدى السفن التجارية الشهيرة للشركة تبخر بعيدا محملة بكنوز الشرق ، ورايتها المخططة ترفرف فى الريح .



الشكل ١ - ١

سپريديون روما: الشرق يقدم ثرواته
إلى بريطانيا، ١٧٧٨

ولكى ينجز سپريديون لوحته القربان «التقديم» اعتمد على سلسلة طويلة من اللوحات المماثلة التى تعرض السيادة التجارية الأوروبية؛ فالنجاح المبكر للمنافس الرئيسى لشركة الهند الإنجليزية، وهى شركة الهند الشرقية الهولندية المتحدة، كان قد زود بيتر آيساكس^(*) بالإلهام الذى كان يلزمه لإنجاز لوحته التى

(*) «بيتر آيساكس - Pieter Isaacsz» (١٥٦٨ - ١٦٢٥) فنان هولندى من أصل دنماركى يُعد واحدا من أبرز رسامى عصره - (المترجم).

رسمها عام ١٦٠٦ لترمز إلى أمستردام باعتبارها مركز تجارة العالم^(٣). وفي الصورة المجازية التي رسمها آيساكس، تقبض هولندا على وعاء الوفرة بيدها اليمنى وتسيطر بيدها اليسرى على العالم، ويقدم لها الخدم اللآلئ، في حين تصدر ثلاث من سفن الشركة الهولندية المتحدة مركز اللوحة. وبعد قرن من الزمان، جندت الشركة الإنجليزية النحات الهولندي ذائع الصيت مايكل ريسبراك ليبدع مدخنة رخامية فخمة لمقرها الجديد. على يسار ذلك النحت تجلس بريطانيا لتتلقى صندوق ثروة من امرأة تمثل آسيا، تحميها امرأتان، إحداهما تقود جملاً والأخرى تقود أسداً؛ ويحيط بالنحت من الجهة اليمنى سفينتان من سفن الشركة. لكن النقطة المهمة هي أن بريطانيا وآسيا كانتا تنظرا في عيني بعضهما البعض، كما لو كان الغرض هو الرمز إلى أن ذلك العصر ما زال عصراً تقيم فيه الشركة ثروتها على التبادل. كانت الشركة الإنجليزية قد كسبت أرضاً بالفعل، ولكنها كانت لا تزال خلف منافستها الهولندية، وكانت قد بدأت بالفعل في مواجهة منافسة قاسية من شركة الهند الفرنسية الجديدة.

ومع ذلك، فإنه بحلول عام ١٧٧٨، لم يعد هناك شك في أن «شركة جون»، أي الشركة حسبما اشتهرت آنذاك، قد حلت محل «شركة جان» في السيطرة على تجارة أوروبا مع آسيا؛ ذلك أن سنوات الجدال حول حقوق التجارة مع الحكام المحليين في الهند كانت قد انتهت قبل ذلك التاريخ بعقدين بالاستيلاء على البنغال عام ١٧٥٧، فقد تمكنت قوات الشركة بقيادة «روبرت كلايف»، والتي جمعت بين العضلات الاقتصادية وجيشها الذي كان فعالاً بالرغم من صغره، من هزيمة نواب^(*) البنغال في بلاسى، على بعد ٩٠ ميلاً شمال قاعدتها التجارية في كلكتا. وقد عينت الشركة بسرعة مير جعفر، وهو القائد الذي خان النواب المهزوم، أول حاكم في سلسلة من الحكام الدمى لإقليم البنغال. وفي صفقة تجارية أكثر من مجرد معركة حربية حقيقية، تلا هزيمة بلاسى نهب خزانة البنغال، وفي رمز قوى لنقل الثروة الذي كان قد بدأ آنذاك، حملت الشركة

(*) التَّوَاب: لقب كان يطلق على حاكم أى مقاطعة، مثل البنغال، في فترة حكم المغول في الهند. أصبح اللقب فيما بعد لقباً لأعيان المسلمين. (الترجم).

الذهب والفضة من خزائن البنغال فى أسطول يتكون من أكثر من مائة مركب وأرسلتها عبر النهر إلى كالكتا . وبضربة واحدة حقق كلايف للشركة ربحا صافيا يقدر بـ ٢, ٥ مليون جنيه وحقق لنفسه ربحا يقدر بـ ٢٣٤, ٠٠٠ جنيه^(٤) . وهذا المكسب يساوى اليوم ما قيمته ٢٣٢ مليون جنيه إسترليني من المكسب الذى لا عناء فيه ، و٢٢ مليون جنيه أتعاب لكلايف جاءت بلا كد . ويرى العرف التاريخى أن بلاسى كانت هى الخطوة الأولى فى تأسيس الإمبراطورية البريطانية فى الهند . وربما يكون من الأفضل أن نفهمها على أنها أنجح الصفقات التجارية التى قامت بها شركة الهند الشرقية .

وفى القرن الذى تلا ذلك ، استخدمت الشركة سيادتها على البنغال فى احتكار تجارته الداخلية والخارجية ، وفى ذلك السياق أجبرت التجار الآسيويين والهولنديين والفرنسيين على الرحيل . وفى شهر أغسطس من عام ١٧٦٥ ، تم الاعتراف الرسمى بسيادة الشركة عندما وافق الشاه علم إمبراطور المغول المفلس على منح حق الديوانى^(*) فى البنغال للشركة . وأعطى هذا الوضع الحكومى للشركة السيطرة على جمع الضرائب من أكثر من ١٠ ملايين نسمة . وبالنسبة لشركة مدرجة بسوق الأسهم وتعتبر الربح دافعها الأول ، كانت السيطرة على المالية العامة للبنغال كسبا ثورياً بحق . ولم يكن من المدهش أن يرتفع سعر سهم الشركة عندما وصلت الأخبار إلى أسواق المال فى لندن فى أبريل عام ١٧٦٦ .

وبالضبط مثلما صور سپريديون فى لوحته ، بدأت ثروة الشرق تصب فى إنجلترا ، مثل ذلك تحولاً غير عادى ، فقبل معركة بلاسى كان «الميزان التجارى مع كل الدول فى صالح البنغال» ، حسبما يذكر ألكسندر داو فى كتابه «تاريخ الهندوستان» الصادر عام ١٧٧٣^(٥) . «لقد كانت البنغال هى البالوعة التى يخطفى فيها الذهب والفضة دون أدنى احتمال لعودتها» . الآن انعكس اتجاه التدفق ، فقد اتحدت قوة الاحتكار مع العائدات الهائلة بلا مقابل لخلق قوة شرائية منقطعة النظير كانت تحصل على كميات هائلة دائمة التزايد من بضائع الشرق للأسواق

(*) حق الديوانى هو حق جمع الضرائب من السكان المحليين فى دولة الإمبراطورية المغولية - (المترجم) .

الأوروبية . وعلى الرغم من الموانع التجارية الصارمة أمام القماش القطنى الهندى الرخيص ، فإن المنسوجات البنغالية - وبخاصة قماش الموصلين القطنى الناعم الذى كان يصنع فى دكا - استمرت موضة أساسية عند الصفوة النسائية فى بريطانيا . بل إن بريطانيا التى صورها سپريديون بدت كما لو كانت ملفوفة فى قماش الموصلين . ولكن الشاى صار فى ذلك الوقت أنجح سلع الشركة ، وساعدت ثروات البنغال على مضاعفة شحنه من فرع الشركة فى الصين فى كانتون «جوانجزهو - Guangzhou» ثلاث مرات فى السنوات الخمس التى تلت عام ١٧٦٨ . ارتفع الاستهلاك السنوى من الشاى إلى حوالى رطل واحد لكل رجل وامرأة وطفل فى إنجلترا . وفى شوارع لندن جعلت الشركة أيضا وجودها ملموسا ، وليس أقل مظاهر ذلك الوجود مقرها المهيب فى شارع ليدنهول ، ومجمع أرصفة الرسو الضخم فى بلاكول ، وبيوت التجار الراقية حول محطة إستبنى جرين . وكان عام ١٧٧٨ - وهو العام الذى أنجز فيه سپريديون لوحته الشهيرة التى يحتفى فيها بالنجاح التجارى للشركة - سيبدو بالنسبة للجنة برلمانية مختارة للتحقيق فى أحوال الشركة بعد خمس سنوات عام «المد العظيم» لصادراتها من آسيا^(٦) .

عناصر مفقودة

تزودنا لوحة سپريديون «الشرق يقدم ثرواته لبريطانيا» بإطلالة خلاصة على الطرق التى رغبت الشركة أن ترى نفسها - ويراها الآخرون - بها فى قمة سطوتها التجارية ، ذلك أن مزجها بين الخيال الكلاسيكى وغرابة الشرق - كوكب المشتري فى بستان من النخيل - يعطى إحساساً بالوفرة اللامحدودة التى جعلها نجاح الشركة فى الشرق ممكناً .

إلا أن تلك اللوحة العظيمة تفتقد إلى الشئ الكثير ، فمثل الكثير جداً من المشروعات الضخمة من ذلك الحين ، أثبت الاستحواذ على البنغال أنه يتجاوز حجم شركة الهند الشرقية . ذلك لأن النشاط المبدئى لسوق الأسهم سرعان ما

أفسح الطريق أمام الإفراط وسوء الإدارة والانهيار . وعندما حولت الشركة نفسها من مشروع تجارى متواضع إلى آلة مؤسسة قوية ، فشلت نظم إدارتها فى التماشى مع المسئوليات الجديدة التى كان عليها مواجهتها . وأصبح اضطهاد النساجين والمزارعين المحليين هو القاعدة العامة ، وخرج الإنفاق العسكرى عن نطاق التحكم مع تولى المغامرين السيطرة بدلا من التجار ، واستشرى الفساد بصورة وبائية ، كما ظهرت المضاربة على أسهم الشركة ، وهو الأمر الذى حث عليه كلايف وآخرون . ثم فى عام ١٧٦٩ ، استفز الصراع الذى نشب جنوب الهند المستثمرين ذوى المزاج العصبى ، مما أدى إلى الهبوط الحرس لسعر سهم الشركة . وظهر أثر هذه الأزمة المالية فى أوروبا وواجهت الشركة الإفلاس . وفى كل مكان فى البنغال ؛ تحول الجفاف إلى مجاعة ؛ لأن المديرين التنفيذيين للشركة كانوا يربحون ربحا فاحشا من رفع أسعار الحبوب . وتدفقت المسرحيات والكتيبات والقصاصات من المطابع فى بريطانيا للتشهير بالشركة ومديريها . وأصبح رسامو الكاريكاتير يصورون مديرى الشركة على أنهم نوابون «حكام» جشعون ، أو الطبقة المرفهة فى إنجلترا فى ظل حكم الملك جورج . ومثل الكثير من معاصريه ، كان أستاذ الفلسفة الأخلاقية فى جامعة جلاسجو آدم سميث متوجسا من الطريقة التى «تقهر وتسيطر» بها الشركة فى الهند الشرقية^(٧) . واضطر البرلمان إلى التدخل ، فى حين ركز الوطنيون «الأمريكيون» عبر الأطلنطى فى المستعمرات البريطانية فى أمريكا على الشاى الذى تصدره الشركة باعتباره رمزا للقمع . وبحسب ما ذكره أحد «الأمريكيين» فى طلب قدمه لرقابة التجار فى بنسلفانيا ، كانت أمريكا تواجه «أقوى شركة تجارية فى الكون» ، مؤسسة «متمرسمة فى الطغيان والنهب والقمع وإراقة الدماء»^(٨) . وفى مساء عام ١٧٧٣ ، ارتدى الوطنيون «الأمريكيون» زى «الهنود» وألقوا بشاى شركة الهند الشرقية فى ميناء بوسطن ، وهى البداية الرمزية لحرب الاستقلال الأمريكية .

لقد كانت الحرب لا تزال مستعرة فى أمريكا عندما أزيح الستار عن لوحة القربان «التقديم» فى مبنى الشركة لأول مرة . وفى لندن استمر سعر سهم الشركة فى التدهور إلى نصف المستوى الذى كان قد وصله خلال عقد الستينيات من القرن الثامن عشر . وفى الهند ؛ اتخذ أقدم مديرى الشركة

الحاكم الجنرال وارين هاستينجس (*) سلسلة من الإجراءات اليائسة لكي يعيد للشركة صحتها المالية . وبنظرة إلى تلك الحقبة التي حاول البرلمان فيها مرة أخرى وضع الشركة زمام المسئولية والمحاسبة في أوائل عقد الثمانينات من القرن الثامن عشر ، كان الفيلسوف والسياسي إدموند بورك (***) قاسياً جداً في نقده للشركة ؛ فبالنسبة له كانت شركة الهند قد «**دُمّرت بصورة جذرية وعلى نحو لا يمكن معه الإصلاح**» من خلال «**استنزاف الشركة المتواصل**» لثرواتها - وهي العبارة التي قدر لها أن تطارد الوجود البريطاني في الهند لمدة المائة والخمسين عاما التالية^(٩) .

إلا أن أيا من هذا - المضاربة على أسهم الشركة ، والحروب ، والفساد - لم يكن يسمح له بأن يفسد التعبير عن الثقة الكبيرة التي عهد مدير الشركة الأربعة والعشرون لسبيريدون روما أن يعبر عنها . لقد كانت هناك بعض الأشياء دائما خفية ، كما هو الحال الآن .

انعدام غريب للرؤية

شركة الهند الشرقية ، التي أسستها إنجلترا عشية السنة الجديدة عام ١٦٠٠ ، هي أم المؤسسات الحديثة ؛ ففي فترة وجودها التي تعدت القرنين ونصف القرن من الزمان ، كانت جسرا بين العالم الميركانتيلي (***) ذى التراخيص الاحتكارية ، وعصر الصناعة الذي يتميز بالمؤسسات المسئولة فقط أمام حاملي أسهمها . ذلك أن تأسيس الشركة بمرسوم ملكي ، واحتكارها لكل التجارة بين بريطانيا وآسيا ، وامتيازاتها شبه السيادية في حكم المقاطعات وتكوين الجيوش ، تجعل وضع الشركة كمؤسسة ضخمة في زمن لاحق . ربما كانت الشركة تشير إلى العاملين

(*) وارين هاستينجس ، أحد كبار موظفي الشركة ، ترقى في مناصبها وفي إدارة أقاليم الهند حتى تم تعيينه عام ١٧٧٢ حاكما للبنغال ، ثم حاكما عاما للهند عام ١٧٧٣ - (المترجم) .

(**) إدموند بورك سياسي ومؤلف وخطيب ومنظر سياسي خدم لفترة طويلة في مجلس العموم البريطاني ، واشتهر بمساندته للمستعمرات البريطانية في أمريكا إبان صراعها مع الملك جورج الثالث ، واشتهر أيضا بمعارضته الثورة الفرنسية - (المترجم) .

(***) نظرية اقتصادية سادت في أوروبا حتى القرن الثامن عشر ، تدعو لتدخل الحكومات لتقوية الاقتصاد في مواجهة الدول الأخرى ، وترى أن ثروة الأمم تنوقف على كمية المعادن الثمينة التي بحوزتها - (المترجم) .

بها على أنهم موظفون لا على أنهم مديرون تنفيذيون، وربما كان التواصل بين قطاعاتها يتم بقلم الريشة وليس عن طريق البريد الإلكتروني، لكن السمات الأساسية للمؤسسات المملوكة لحاملي الأسهم تظل واضحة للعيان.

أكثر من وضع الشركة كرائدة للمؤسسات، فإن مجرد حجم عملياتها يجعلها ذات أهمية عالمية من الناحية التاريخية. ففي أوج حالها، توسعت إمبراطوريتها التجارية من بريطانيا عبر المحيط الأطلنطي وحول طريق رأس الرجاء الصالح إلى الخليج ووصولاً إلى الهند. وتم إنشاء مراكز تجارية في جزيرة سانت هيلانة في المحيط الأطلنطي حيث كان نابليون في المنفى يشرب القهوة التي تبيعها الشركة، كذلك تم إنشاء مصانع للشركة في البصرة وجمبرون (بندر عباس) في الشرق الأوسط. إلا أن الأثر الذي تركته الشركة على الهند كان أكثر عمقا، حيث أدت العمليات التجارية للشركة إلى بروز بعض أهم وأكبر مدن الهند وخاصة بومباي (مومباي سابقا) وكلكتا ومدراس (تشناي سابقا). وخلف تلك الموانئ الساحلية قامت الشركة بتكوين إمبراطورية هائلة من الأراضي، انطلاقاً في البداية من رغبتها في تحقيق المزيد من العائدات، ثم أصبح ذلك غاية في حد ذاته بعد ذلك، وفي النهاية تمكنت الشركة من حكم معظم أراضي شبه القارة الهندية. إلا أن الشركة لم تتوقف عند هذا الحد، وإنما امتد نفوذها إلى جنوب شرق آسيا، وكذلك الصين واليابان، فقامت بشراء ميناء بينانج (في ماليزيا الآن)، وسنغافورة في عصر كانت الأقاليم تباع فيه وتشتري شأنها شأن السلع. وإذا كانت الشركة قد حققت أول ثروتها التجارية في الهند، فقد حققت في الصين ثروة أخرى. وكانت الشركة تقوم من خلال مصنعها في كانتون بإرسال ملايين الأرتال من شاي بوهايا، وكونجو، وسوشون، وبيكو^(*) غرباً إلى بريطانيا وما وراءها. وبالنسبة لصادرات الشركة إلى الصين، كانت الفضة في البداية، ثم طوفان من أفيون «باتنا - Patna»^(**) بعد ذلك، والذي كان يتم تهريبه في صناديق تحمل، بفخر، العلامة التجارية المميزة للشركة.

(*) أنواع من الشاي الفاخر الذي كانت تستورده أوروبا في تلك الفترة - (المترجم).

(**) مدينة باتنا واحدة من أقدم المناطق التي أهلها السكان في العالم، وهي تقع على نهر الجانج، وهي الآن

عاصمة ولاية بيهار الهندية - (المترجم).

كانت الشركة خلال فترة وجودها فى حالة أشبه ما تكون بالتحول المستمر ، وجاءت نهايتها عقب الثورة التى قامت ضد حكمها فى الفترة من عام ١٨٥٧ و ١٨٥٨ ، وهو صراع يعرف بصفة عامة فى بريطانيا بـ «التمرد الهندى - Indian Mutiny» وفى الهند بـ «حرب الاستقلال الأولى - First War of Independence» . لم تعد الشركة تمارس التجارة ، بل صارت تدير الأراضى التى سيطرت عليها فى الهند كممثل رسمى للتاج البريطانى . لكن كان هناك عنصر لم يزل باقيا ، وهو الغرض الأساسى لها كمؤسسة تهدف إلى الربح وتضع نصب عينيها دائما مساهميتها وحصص الربح السنوية . وعقب قيام الشركة بقمع الثورة واسعة النطاق فى الهند ، ثار رد فعل شعبى عنيف ضدها وضد وضعها الذى لم يعد يناسب العصر . وصدر قانون الهند فى عام ١٨٥٨ الذى تم من خلاله تأميم الشركة بشكل فعال ، وانتقلت جميع الحقوق والمسئوليات الخاصة بها إلى الدولة البريطانية ، وكانت تلك هى بداية الحكم البريطانى فى الهند . إلا أن الشركة استمرت فى الوجود «كظل شبح» على حد تعبير أحد المراقبين ؛ إذ فقدت الشركة الغرض الذى تأسست من أجله ، إلا أن أعضاء مجلس إدارتها كانوا يصرون على حماية رأس مالها طوال السنوات الباقية من عمر مرسوم تأسيسها الأخير . وأخيراً انتهت تلك الفترة وحصل مساهمو الشركة على سندات حكومية فى مقابل أسهمها . وفى الأول من شهر يونية عام ١٨٧٤ انتهت الشركة من الوجود .

من المؤكد أن الحكم الاستعمارى كان هو النتيجة النهائية للمغامرات التى قامت بها الشركة فى آسيا . إلا أن ما دفع إلى السير فى ذلك الطريق بعناد هو السعى وراء تحقيق الأرباح الشخصية لموظفيها ولها أيضا . لكن هذا السعى الدائم تسبب فى نتائج كان لها الأثر المدمر على العالم . وعندما اختفت الشركة من الوجود ، كانت قد غيرت مجرى التاريخ الاقتصادى ، وعكست اتجاه تدفق الثروات من الغرب إلى الشرق الذى استمر لقرون . لقد كانت أوروبا منذ عهد الرومان هى الشريك التجارى الذى تلجأ إليه آسيا دائما ، حيث كانت أوروبا تقوم بشحن الذهب والفضة إلى آسيا فى مقابل التوابل والمنسوجات وغيرها من السلع الكمالية . وانجذب التجار الأوروبيون إلى الشرق بسبب ثرائه وتقدمه فى

وقت كان فيه حجم الاقتصاد الغربى صغيراً جداً مقارنة بالاقتصاد الآسيوى . وخلال المائة والخمسين عاما الأولى ، كان على الشركة أن تكرر ذلك النهج ، حيث لم يكن هناك تقريبا صادرات بريطانية تغرى أهل الشرق بشرائها ، إلا أن الشركة غيرت ذلك النسق الخاص بالتجارة والثروة والذي دام لفترة طويلة ، وكانت بداية هذا التغير فى البنغال خلال العقود التى تلت معركة بلاسى ، ثم فى الصين من خلال تجارة الأفيون ، وعندما زالت الشركة كان الاقتصاد الأوروبى قد زاد حجمه ليصبح ضعف اقتصاد الصين والهند ، وهو عكس الوضع الذى كان سائدا فى عام ١٦٠٠ (انظر الجدول ١ - ١) . لقد كان هناك الكثير من العوامل التى أدت إلى هذا التحول ، إلا أنه من المؤكد أن شركة الهند الشرقية هى أحد العوامل الرئيسية التى تسببت فى ذلك التحول الكبير فى التطور العالمى الذى كان يمثل بداية مولد العصر الحديث .

لكنك لو سرت إلى موقع المقر الرئيسى لشركة الهند الشرقية - كما فعلت أنا - لوجدت أنه لا يوجد هناك ما يشير إلى ذلك التأثير الهائل لتلك الشركة التى كانت فى منتهى القوة فى يوم من الأيام ، وفى هذا المكان نجد اليوم «بنية ليودز - Lloyds Building» التى شيدها ريتشارد روجرز(*) والى بنيت من الصلب والزجاج . وفى هذا المكان كان أعضاء مجلس إدارة الشركة يديرون العمليات الخاصة بها فى جميع أنحاء العالم ، كذلك كانت تقام المزادات ربع السنوية الشهيرة للشركة . كانت تلك المزادات تستمر لأيام فى بعض الأحيان ، وكانت الجلبة صاحبة حتى أن أصوات «الصياح والصراخ» الصادرة من غرفة البيع كان يمكن سماعها عبر الحوائط الحجرية السميكة الموجودة فى الشارع بالخارج . وتُظهر لنا رواية لورانس نورفولك(**) الرائعة «قاموس ليمبيرير» الصادرة فى عام ١٩٩١ بعض تلك الأحاسيس ، حيث تحَدَّث فيها عن جمعية سرية تتحكم فى الشركة من خلال كهوف تقع أسفل شوارع لندن ؛ وعندما يقترب البطل من المقر الرئيسى لشركة الهند الشرقية يجد أمامه «مبنى حجريا ضخماً يمتد بطول شارع ليدنهول وكأنه جثة متحجرة»(١٠) .

(*) ريتشارد روجرز «Richard Rogers» أحد كبار المعمارين فى تاريخ إنجلترا الحديث - (المترجم) .

(**) رواى بريطانى اشتهر برواياته التاريخية ، وقد فاز بجائزة سومرست موجام عن روايته المذكورة التى تحكى قصة نشر جون لاميرير لكتابه «بيلبوتيكلا كلاسيكا» عن تاريخ الأساطير القديمة - (المترجم) .

الجدول ١ - ١ : الحصص المتغيرة من إجمالي الناتج المحلي لبريطانيا وأوروبا الغربية، والصين والهند، والعالم في الفترة ما بين عامي ١٦٠٠ إلى ١٨٧٠ (المبالغ مقطرة بملايين الدولارات الدولية في عام ١٩٩٠)

النسبة النوية للإجمالي	١٨٧٠	النسبة النوية للإجمالي	١٧٠٠	النسبة النوية للإجمالي	١٦٠٠	
٩,١٠	١٠٠١٧٩	٢,٨٨	١٠٧٠٩	١,٨٠	٦٠٠٧	بريطانيا
٣٣,٦١	٣٧٠٢٢٣	٢٢,٤٦	٨٣٣٩٥	٢٠,٠٢	٦٥٩٥٥	أوروبا الغربية
١٧,٢٣	١٨٩٧٤٠	٢٢,٣٠	٨٢٨٠٠	٢٩,١٤	٩٦٠٠٠	الصين
١٢,٢٥	١٣٤٨٨٢	٢٤,٤٤	٩٠٧٥٠	٢٢,٥٤	٧٤٢٥٠	الهند
	١١٠١٣٦٩		٣٧١٣٦٩		٣٢٩٤١٧	العالم

المراجع/ أنجوس ماديسون، الاقتصاد العالمي، باريس: منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية، ٢٠٠١، ص ٢٦١، الجدول B-18.

Angus Maddison, The World Economy, Paris, OECD, 2001.

ولم يكن شارع ليدنهول هو أول مقر للشركة. لقد كانت الأعمال التجارية للشركة تجرى في قصر أول حاكم (أو رئيس) لها، وهو السير توماس سميث الذي كان يقع في المنطقة التجارية في لندن، وذلك عندما قامت الملكة إليزابيث الأولى بإنشاء شركة «الحاكم، ومجموعة تجار لندن للتجارة مع جزر الهند الشرقية»، وكان قصره يقع في الزقاق الضيق في منطقة فيلبوت لين، ولا تزال ذكراه تعيش في مطعم الكاري الذي يحمل اسما على مسمى وهو «تاجر التوابل». ثم انتقل مقر الشركة إلى الشمال بمقدار مئات قليلة من الiardات ليحتل

قاعة كروسبي^(*). وبعد انتقال المقر الرئيسى للشركة من ذلك المكان بفترة طويلة، ظل ذلك المبنى الرائع الذى يمثل الطراز المعمارى الذى ساد فى عصر الملك جيمس الأول فى قلب المنطقة التجارية فى لندن. وعندما أراد المسئولون عن تطوير العقارات إزالة ذلك المبنى فى نهاية القرن العشرين، تم تنظيم حملة شعبية جمعت الأموال اللازمة لتفكيكه وإعادة بنائه حجراً حجراً على قطعة أرض على النهر فى تشلسى، وظل القصر قيد الاستخدام من قبل القطاع العام ككُلية حتى قامت مارجريت ثاتشر ببيعه بعد قيامها بإلغاء مجلس مدينة لندن الكبرى فى عام ١٩٨٦، ثم قام أحد الممولين بشراؤه، وهو الممول الذى قام حديثاً ببناء شركة التأمين العملاقة ليودز، وهو الموقع الذى كانت قد احتلته الشركة العظمى خلال المرحلة التالية من مراحل تطورها.

كانت بداية انتقال شركة الهند الشرقية إلى مقرها الأخير فى عام ١٦٤٨، وقد مر هذا المكان بمراحل كثيرة خلال فترة وجوده التى استمرت مائتى عام. وفى التسعينيات من القرن السابع عشر كان يُعرف باسم «القصر الذى يتتمى إلى شركة الهند الشرقية، وهى شركة كبيرة تتكون من رجال أذكىاء لهم أغراض دفيئة»^(١١). وبحلول بدايات القرن الثامن عشر أصبح أحد العلامات البارزة فى المنطقة التجارية فى لندن، وأصبح أحد أركان ثلاثى الشركات الضخمة فى ذلك العصر جنباً إلى جنب مع شركة ساوث سى ومصرف إنجلترا. كان ذلك المقر يتمتع بجو خاص يوحي بالحياة البحرية؛ حيث ينتصب أعلاه تمثال لبحار ودولفينين، وبرزت أهميته لكل من يمر عليه من خلال كل من العلامة الملكية وعلامة الشركة اللتين كانتا تزيان الواجهة. وعندما انهارت شركة ساوث سى بعد انهيار مشروعها الوهمى الشائن فى عام ١٧٢١، حققت الشركة ومقرها الرئيسى هيمنة من نوع جديد فى إنجلترا فى عصر والبول^(**). وفى عام ١٧٢٩ أعيد بناء المقر الرئيسى لشركة الهند الشرقية، وكان ذلك البناء الجديد يوحي لزاثيره بالهيمنة

(*) أحد أهم المباني فى لندن القديمة، ضاع معظمه بعد حريق لندن عام ١٦٦٦، استغلته الشركة كمقر لاجتماع مجلس إدارتها لفترة - (المترجم).

(**) سير روبرت والبول، أحد أبرز رؤساء وزراء بريطانيا، تولى منصبه فى فترة حكم جورج الأول ثم فى فترة حكم جورج الثانى - (المترجم).

العالمية للشركة من خلال مجموعة من اللوحات الزيتية التي تصور المراكز التجارية للشركة التي تمتد من المحيط الأطلنطي (جزيرة سانت هيلانه) إلى إفريقيا (كيب تاون) والساحل الغربي للهند (بومباي وتيليشيري) ثم مدراس وكلكتا .

وعقب معركة بلاسي ، أضيفت إلى رموز البراعة التجارية الفائقة تماثيل للآبطال العسكريين للشركة ، ففي البداية تم وضع تماثيل لكلايف ، وسترينجر لورانس (*) ، وبعد ذلك ماركيز كورنواليس (**) وأرثر ويلزى (***) - جنرال الجنود الهنود - الذي أصبح فيما بعد دوق ولينجتون . ولكن مع ازدياد نفوذ الشركة لم يعد المبنى المصمت الذي أُنشئ في العشرينيات من القرن الثامن عشر يناسب عظمة العمليات التي تقوم بها الشركة في جميع أنحاء العالم . ولقد ذكر جيمز نورثوك في كتابه «تاريخ لندن الجديد» الذي نشر عام ١٧٧٣ أن «مظهر المبنى لا يناسب أبدا ثراء الشركة التي يمارس موظفوها سلطة سيادية في أراضي الهند»^(١٢) . وهكذا شهدت الفترة ما بين عامي ١٧٩٦ و ١٧٩٩ إنشاء مبنى ضخم على الطراز اليوناني الروماني يبلغ طوله ٢٠٠ قدم ، وفوق الرواق المعمد يظهر الملك جورج الثالث وهو يدافع عن تجارة الشرق ، وبصحبه مرة أخرى ثلاث سيدات رمزيات : السيدة بريطانيا تركب أسدا وأوروبا تركب حصانا ، وآسيا تتبعهما على ظهر جمل .

داخل ذلك الصرح المبههر كان يجلس العشرات من الموظفين الذين بقي الكثيرون منهم يعيشون حتى الآن في ذاكرة بريطانيا الثقافية ، ليس بسبب عملهم في الشركة ، ولكن بسبب صلتهم بالأدب الإنجليزي ، فنجد أن تشارلز لامب مؤلف «مقالات إيليا» وصديق شعراء المدرسة الرومانسية كان يعمل في قسم الحسابات في الشركة بداية من عام ١٧٩٢ . وقد أهدي صمويل تايلور

(*) سترينجر لورانس (١٦٩٧ - ١٧٧٥) أول قائد عام للقوات البريطانية في الهند - (المترجم) .

(**) ماركيز كورنواليس (١٧٣٨ - ١٨٠٥) قائد عسكري بريطاني لعب دوراً كبيراً في حرب الاستقلال الأمريكية ثم ذهب إلى الهند وشارك في هزيمة سلطان ميسور في حربه الثالثة مع القوات الإنجليزية ، ثم أصبح بعد ذلك حاكماً عاماً للهند - (المترجم) .

(***) آرثر ويلزى (١٧٦٩ - ١٨٥٢) سياسي إنجليزي من أصل أيرلندي ، خدم في الجيش وحارب في جبهات عدة من أهمها دوره في حرب ميسور الرابعة في الهند التي عين بعدها حاكماً لمقاطعات سيرينجاتام وميسور ، وانتصر في موقعة واترلو الشهيرة على نابليون - (المترجم) .

كوليردج(*) قصيدته التي كتبها في عام ١٧٩٧ «تعريشة شجر الزيزفون» إلى «صديقي تشارلز طيب القلب» الذي ظل لسنوات يتوق ويشتاق إلى الطبيعة وهو حبيب المدينة الكبيرة. وكان لامب على مدى ٣٣ عاما يثنى تارة على الدخل الثابت الذي وفرته له وظيفته، ويلعن تارة الملل الذي تسببه له حياة المكاتب. وفي عام ١٨١٥، كتب خطابا إلى صديقه وردزورث(**) يقول فيه: «تفسد الفوضى جميع الصفقات التجارية والمعاملات وتبادل السلع والتعاملات بين الشعوب»^(١٣). وفي فبراير من عام ١٨٠٥، لقي جون شقيق وردزورث حتفه عندما تحطمت إحدى سفن الشركة - «إيرل أبرجافيني». وإلى جانب لامب، التحق الروائي توماس لاف بيكوك - مؤلف روايات الرعب - بالعمل بالمقر الرئيسي للشركة في عام ١٨١٩، وأصبح أحد ثلاثة مفتشين مساعدين. وقد أثار تلك الوظيفة الجديدة التي حصل عليها بيكوك روح الدعابة عند لي هنت(***) فكتب إلى الشاعر بيرسي بيشى شيلي(****) يقول له: «إننا نهزأ من عظمته الشرقية وعلمه البراهمي(*****) وميله الحتمي ليصبح أحد الفاسدين»^(١٤). كذلك التحق مفكر المنفعة الناشط جيمس ميل بخدمة الشركة في العام نفسه، وانضم إليه في عام ١٨٢٣ ابنه جون ستيوارت، وفي عام ١٨٣٥ انضم إليه أيضا جيمس بنتام (الذي تم تعيينه في البنغال)، وبعد موت الأب سار جورج جروت ميل على خطى والده وأصبح موظفا في عام ١٨٤٤. لقد كان كل فرد تقريبا خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر في إنجلترا مرتبطاً بطريقة أو بأخرى بشركة الهند الشرقية، سواء من خلال الالتحاق بوظائف الشركة مباشرة أو العلاقات العائلية أو استهلاك منتجاتها.

(*) صمويل تايلور كوليردج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) أحد كبار شعراء الحركة الرومانسية في القرن التاسع عشر - (الترجم).

(**) ويليام وردزورث (١٧٧٠ - ١٨٥٠) الرائد الأكبر للحركة الرومانسية، اشترك مع رفيقه كوليردج في إصدار ديوان القصائد الغنائية عام ١٧٩٨ - (الترجم).

(***) لي هنت (١٧٨٤ - ١٨٥٩) كاتب وناقد وشاعر إنجليزي - (الترجم).

(****) بيرسي بيشى شيلي (١٧٩٢ - ١٨٢٢) ثالث أقطاب الحركة الرومانسية في بدايات القرن الثامن عشر. عاش حياة قصيرة جداً إلا أنه استطاع أن يترك بصمة في الأدب الإنجليزي - (الترجم).

(*****) البراهمان أعلى طبقة عند الهندوس - (الترجم).

انتهت تلك المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل حياة المقر الرئيسي لشركة الهند الشرقية منذ زمن طويل ، حيث تم إزالته في عام ١٨٦١ بعد مرور ثلاث سنوات فقط على دخول ممتلكات الشركة في إمبراطورية الملكة فيكتوريا . وكان العمل الرمزي - الذى أبدعه سپريديون والذى يرمز لبريطانيا بامرأة - أحد الأعمال التى انتقلت عبر لندن فى رحلة قصيرة - ولكن رمزية - من شرقها حيث التجارة إلى غربها حيث السياسة . واليوم نجد أن الكثير من التحف الخاصة بالشركة تملأ «متحف فيكتوريا وألبرت» وعلى وجه الخصوص ذلك النمر الميكانيكى الذى كان يملكه «تيبو صاهب» سلطان «ميسور - Mysore» . أما لوحة القربان «التقديم» فقد استخدمت فى البداية لتزيين مبنى وزارة شؤون الهند ، ثم تزيين مبنى وزارة الخارجية والكومنولث ، ولا يزال التمثال قائما على درج الجورخا* هناك . أما فى باقى مناطق لندن فلا يوجد سوى أقل القليل من الأشياء العينية التى خلفتها الشركة ، ولكن - كعادة البريطانيين - هناك حانة تدعى «جيوش الهند الشرقية» فى شارع فينتشرش ، وهى تحتل جزءا صغيرا جدا من مجمع للمخازن كان يمتد باتجاه منطقة «آلدجيت» .

تمتلى مدينة لندن بالنصب التذكارية ، إلا أنه لا يوجد من بينها ما يخلد ذكرى شركة الهند الشرقية ، ويعد ذلك غريبا جدا باعتبار أن الشركة كانت هى المؤسسة المفضلة فى لندن ، وكان مرسوم تأسيسها يستبعد بوضوح التجار فى الموانى الأخرى من التجارة مع آسيا . إلا أن المسألة لا تتعلق بأن لندن قد تغاضت عن الاحتفاء بذكرى جزء من تاريخها ، ففى الموقع الذى كان فيه المقر الرئيسى لشركة الهند الشرقية ، على سبيل المثال ، نجد لوحة تخلد ذكرى تأسيس النظام البريدى فى بريطانيا الذى جعل رسوم إرسال الخطابات بنسأ واحداً فقط ، والذى قام بتأسيسه ويليام دوكوند فى عام ١٦٨٠ . لكن لا يوجد ما يشير إلى أن المقر الرئيسى لشركة الهند الشرقية استمر موجودا فى ذلك المكان لأكثر من مائتى عام^(١٥) . لقد اختفت الكثير من المؤسسات من ذاكرة التاريخ لأسباب معقولة ، إلا أن محو ذكرى شركة الهند الشرقية يثير الشكوك إلى أقصى الحدود .

(*) نسبة إلى قبائل «الجورخا - Gurkha» الهندية التى كانت تتميز بقدرتها الحربية الفائقة وشجاعة مقاتليها .
خدم العديد من أفرادها فى الجيش الإنجليزى - (المترجم) .

إن محاولة تفسير غياب شركة الهند الشرقية من ذاكرة التاريخ تتعلق بالوضع الذى تحتله الشركة تاريخيا والذى يثير الجدل . وبعيدا عن الحياة الأكاديمية، نجد أن الموروث الذى تركته شركة الهند الشرقية لا يزال حيا فى الذاكرة الجماعية لشعوب العالم، وهو موروث تتطرق إليه باستمرار الكتب والمعارض والأفلام الوثائقية . إلا أن تلك الوسائل لا تتناول ذلك الموروث بالطريقة نفسها، حيث نجد آراء متضاربة تضاربا شديدا فى أوروبا وآسيا، ويزداد هذا التضارب فى الهند التى لا تزال الشركة تحتل فى ثقافتها المعاصرة مكانا بارزا .

مواجهة الأمراض

وفى الهند، بقيت الآثار المادية التى خلفتها الشركة، فنجد بقايا الحصن الخاص بها فى ميناء تيليشيرى، ذلك الميناء الذى كان يستخدم فى تصدير الفلفل الأسود على الساحل الغربى للهند، ونجد أيضا فخامة وعظمة حصن القديس جورج فى الجانب الشرقى . وفى كلكتا نجد الأثر الأكبر للشركة، فهى «بلدة الشركة» الهائلة الاتساع . لقد تغيرت بعض الأسماء البريطانية للشوارع، إلا أن البصمة التى تركتها الشركة على البلدة واضحة تمام الوضوح . لقد أظهرت عمليات التنقيب التى تمت فى إطار عملية المسح الأثرى للهند، أن المنطقة المحيطة بالجزء الذى أصبح فيما بعد كلكتا، كان مركزا تجاريا مزدهرا قبل قرون من مطالبة جوب شارنوك(*) بضمها إلى أراضى الشركة فى أغسطس من عام ١٦٩٠ . كانت البنغال قد اشتهرت فى الشرق بأنها «جنة الأرض» بما تمتلكه من ثروات وما تتمتع به من رخاء، وهكذا جذبت أفواجا من التجار الأوروبيين بسبب جودة منسوجاتها . وكان التجار البرتغاليون هم أول من رسخوا وجودهم هناك فى عام ١٥٣٥، ثم حل محلهم التجار الهولنديون بعد قرن واحد . ولقد تأخرت الشركة الإنجليزية إلى حد ما فى المجىء إلى البنغال، إلا أن قاعدتها الجديدة فى كلكتا قد تأسست بسرعة، وتم إنشاء أولى متاريس الحصون فى عام ١٦٩٦ والتى أصبحت

(*) جوب شارنوك (١٦٣٠-١٦٩٣) كان أحد موظفى الشركة، ثم أصبح من مديريها - (المترجم).

فيما بعد حصن ويليام، وبعد عامين حصلت الشركة على حق جمع الضرائب (zamindari) على الثلاث قرى المجاورة للمدينة وهم سوتانوتى وجوفنبور وكوليكاتا. وفي عشرينيات القرن الثامن عشر؛ كانت الشركة تحصل على أكثر من نصف وارداتها الكلية من آسيا من البنغال، وكانت معظم تلك الواردات تأتي عن طريق كلكتا. كذلك جذبت مدينة كلكتا الكثير من الهنود بسبب حياة الرخاء التي سادت فيها، وبحلول منتصف القرن الثامن عشر كان عدد سكان المدينة أكثر من ١٢٠ ألف نسمة لم يكن من بينهم سوى ٢٥٠ من موظفي الشركة.

وبعد مرور مائتي عام لا يزال حصن ويليام يحتل المنطقة المجاورة لنهر هوجلى (*) على بعد ميل جنوبي الموقع الأصلي، حيث كان الجيش البنغالي قد حاصر الحصن الأصلي واحتله في شهر يونية من عام ١٧٥٦ وعقب استعادة الشركة لمدينة كلكتا، والنصر الذي حققته في معركة بلاسى، قام كلايف بنقل الحصن إلى موقع أفضل من الناحية الإستراتيجية. إلا أن دفاعاته المنيعه لم توضع على المحك ولا يزال الحصن يستخدم عسكريا، حيث يستخدمه الجيش الهندي كقاعدة للقيادة الشرقية له. وبالقرب منه يقع نصب التذكارى للملكة فيكتوريا من الرخام الأبيض، والذي يقدم عرضا متوازنا على نحو لافت للنظر لتاريخ كلكتا والدور الذي لعبته الشركة في قيام هذه المدينة وتكوينها. وفي الشمال نجد قصر الحكم في عهد الشركة والذي لا يزال يستخدم كمقر لحاكم البنغال. كان قد تم البدء في تشييد هذا المبنى الضخم بمجرد وصول الحاكم الخامس للبنغال ريتشارد ويليزلى إلى الهند في عام ١٧٩٨، وقام ويليزلى بتصميم المبنى الذي كان سيصير مقر إقامته على طراز قصر كيدلستون، وهو قصر ريفى فى مقاطعة ديربى شاير فى إنجلترا، ولم تكن عظمة وفخامة المقر الجديد لشركة الهند الشرقية فى لندن - الذى كان على وشك الاكتمال - لتفوق هذا المقر الجديد لحاكم البنغال. كان ويليزلى تواقا للانتقام من رؤسائه الذين كان يشير إليهم باحتقار على أنهم «بائعو الجبن فى شارع ليدنهول»، ولهذا لم يتورع أبدا عن إنفاق كل ما كان فى

(*) أحد فروع نهر الجانج يمتد عبر البنغال بطول ٢٦٠ كم - (الترجم).

متناول يده من أموال على هذا الصرح لتحقيق الزهو والخيلاء . وبالقرب من هذا المبنى نجد مبنى الكتبة الذى استمد اسمه من موظفى الشركة الذين كانوا يملثون ذلك المركز الإدارى فى يوم من الأيام، ولا يزال يضم الموظفين الرسميين لحكومة غرب البنغال .

لكن هناك أموراً تتعلق بالهوية تعد بذورا للصراع بعد مرور قرون، وتؤكد على تلك الأمثلة الملموسة التى توضح العلاقة القوية بين الشركة وكلكتا، فنجد على سبيل المثال أن العائلات المحلية لم تتمكن من رفض الادعاء القائل بأن جاكوب تشارنوك هو المؤسس «الرسمى» لمدينة كلكتا إلا حديثا، حيث يرون أنه كان هناك العديد من المستعمرات الهندية فى تلك المنطقة قبل وصول الشركة إلى الهند بوقت طويل . كذلك لا تزال معركة بلاسى تثير مشاعر عميقة فى صدور البنغاليين، ولا يزال مير جعفر - القائد الذى تحالف مع كلايف بهدف السيطرة على عرش البنغال - رمزا شعبيا للخيانة . ونجد بصفة عامة فى الهند أن شركة الهند الشرقية لا تزال ترمز للخطر الذى تمثله الشركات الأجنبية الضخمة التى «تأتى بهدف التجارة لكنها تبقى من أجل الحكم» . وقد تأصلت وجهة النظر تلك بعمق فى حركة استقلال الهند التى تمكنت فى النهاية من طرد البريطانيين فى عام ١٩٤٧ . وقام روميش تشاندر دت فى كتابه «التاريخ الاقتصادى للهند تحت الحكم البريطانى» الصادر عام ١٩٠٨ ، بإحياء وإعادة النظر فى النقد الذى وجهه بورك لشركة الهند الشرقية بطريقة تخدم عملية الإصلاح الجذرى التى كان ينشدها دت . وخلص فى كتابه إلى أن «الهند قد تغيرت تحت حكم شركة الهند الشرقية»، وقال إن الشركة كانت بمنتهى البساطة «تنظر إلى الهند على أنها عزة ضخمة أو مزرعة كبيرة يجب الخروج بأرباحها من الهند وإيداعها فى خزائن أوروبا»^(١٦) . وصار هذا «الاستنزاف» فى أعمال دت رمزا ذا دلالة مؤثرة لاستغلال بريطانيا للهند، أولا عن طريق الشركة ثم من خلال الحكم البريطانى للهند .

وبعد مرور أربعين عاما أصبح الدور الذى لعبته الشركة فى الظلم الذى وقع على الهند جزءا من الحملة التى قادها جواهر لال نهرو من أجل الاستقلال التام

عن بريطانيا. فى صيف عام ١٩٤٤؛ تم إلقاء (نهر) الذى أصبح فيما بعد رئيس وزراء الهند وراء القضبان ثانية، وتم عزله بعيدا فى حصن أحمد ناجار ليقضى فترة السجن التاسعة له والأخيرة التى فرضتها عليه السلطات البريطانية، وجاء السجن هذه المرة عقب حملة «أخرجوا من الهند» التى قادها حزب المؤتمر فى عام ١٩٤٢. وأخذ نهر- كما فعل فى الفترات السابقة التى قضاها فى السجن- فى القراءة والكتابة حتى يصل إلى فهم للأزمة، وفى خلال خمسة أشهر فقط تمكن من كتابة ألف صفحة، ولم يتوقف- على حد قوله- إلا لأن الورق كان قد نفذ منه تقريبا، وهكذا خرج كتابه «اكتشاف الهند» إلى النور، ويعد هذا الكتاب آخر ثلاثة كتب ألفها فى السجن، وأكثرها عمقا على الأرجح. ويعرض لنا نهر فى الكتاب رؤيته عن علاقة تاريخ الهند المعقد والثرى بالصراع الذى تخوضه البلاد من أجل الاستقلال. وكان يرى أن كتابة التاريخ ليست عملية أكاديمية نائية وإنما ترتبط ارتباطا وثيقا بالتحرك من أجل تغيير الحاضر.

يبين الكتاب من أوله إلى آخره قناعة نهر و التامة بأن القرنين اللذين شهدا حكم بريطانيا للهند قد أثقلا كاهل الهند بعبء ثقيل لا بد من التخلص منه. إلا أنه عندما يصف شركة الهند الشرقية البريطانية وعملية النهب التى قامت بها فى البنغال بعد النصر الذى حققه كلايف فى معركة بلاسى، نجد أن صوت العقل الهادئ المتحضر فى كتابه يتحول إلى صوت يستشيط غضبا، فنجد نهر و يقول فى كتابه بغضب: «لقد كانت الأجيال الأولى من الحكم البريطانى للهند تتسم بالفساد والرشوة والمحسوبة والعنف والطمع إلى حد لا يمكن تصوره». وتأكيدا على استيائه من ممارسات شركة الهند الشرقية فى الهند أضاف «أن أحد الكلمات الهندوسية التى أصبحت جزءا من اللغة الإنجليزية هى كلمة («loot- انهب»)، وهو أمر له دلالة المهمة»^(١٧).

واليوم وبعد مرور عقد على تحرير الاقتصاد فى الهند، نجد أن ذلك التحليل المهم للدور الذى قامت به الشركة فى تاريخ الهند قد ظهر على السطح مرة أخرى. ويجد الكثير من الهنود- وخاصة فى البنغال- أن قصة الشركة لها مغزبان مهمان: الأول هو أن الشركات عابرة القارات لا تسعى فقط وراء التجارة ولكن

السلطة أيضا، والثاني هو أن الانقسام والخيانة بين الهنود يمكن قبضة الحكم الأجنبي. ويقول جرشاران داس: «إن كل طفل يعلم جيدا قصة سقوط البنغال التي تنطوي على الغدر في معركة بلاسي، فهل من العجيب أننا نرتاب من التجار والشركات الأجنبية؟»^(١٨). وقد زادت تلك المخاوف كثيرا في أواخر التسعينيات من القرن العشرين بسبب عمليات انتهاك حقوق الإنسان والفساد التي ارتبطت بمشروع الطاقة الخاص بمؤسسة إنرون في منطقة دابهول. وقال القاضي داود، وهو أحد قضاة المحكمة العليا المتقاعدين في بومباي: «لقد عادت شركة الهند الشرقية ثانية» بعد أن رأس فريقا لتقصي الحقائق عقب مجموعة من حوادث العنف التي وقعت في دابهول في شهر مارس ١٩٩٧^(١٩). ويرى الكثيرون أن السبب في عدم تقبل الكثير من ممارسات إنرون في دابهول هو تلاعبها الواضح، وكانت النتيجة هي إبرام عقد مع ولاية ماهاراشتا؛ ترى أروندهاتي روى أنه كان بمثابة «أكبر عملية نصب جماعي في تاريخ البلاد»^(٢٠). وتقول أيضا إن إنرون قد تمكنت من القيام بذلك عن طريق استخدام «إستراتيجية مجربة على مر العصور» كان أول من استخدمها شركة الهند الشرقية، وتقوم هذه الإستراتيجية على إفساد عملية صنع القرار وتقسيم المجتمع^(٢١). ونجد أن عبارة «عودة شركة الهند الشرقية» أصبحت عبارة شائعة تستخدم مرارا وتكرارا لوصف التدفق الحالي للشركات عابرة القارات إلى الهند، سواء كانت شركات تعدين عالمية أو شركات أعمال على نحو أعم^(٢٢).

ويرى البعض أن تركيز الشركات الأجنبية على «الحصول تدريجيا على السيطرة الفاعلة والثروة» يمكن تسميته «مرض شركة الهند الشرقية» في أسوأ مراحلها^(٢٣). وقد اكتشف أرفيند فيرماناجي من خلال استعراضه واسع النطاق للدروس المستفادة من الإصلاح الاقتصادي، وجود انقسام بين الأجيال، انقسام بين هؤلاء الذين نشأوا قبل الاستقلال والذين ولدوا بعده. «إن أهم ذكرى ثقافية عند المجموعة الأولى هي خضوعهم للحكم الإنجليزي لمدة قرن ولحكم شركة الهند الشرقية (وهي الذكرى الأكثر مرارة) لقرن آخر قبل ذلك». وكانت النتيجة هي إثارة الخوف لدى الهنود من أصحاب رءوس الأموال الأجانب، كما أن هذا

المرض يشمل فى أسوأ حالاته «نقصاً فى الثقة فى القدرات الذاتية أمام الأجانف البىض»^(٢٤). وتقوم الهند الآن بخطوات للتغلب على هذا «المرض». ويقول المراقبون إنه قد أن الأوان للهند كى «تتعافى» من مرحلة شركة الهند الشرقية. كذلك نجد حسا جديدا من التأكيد على الهوية القومية يحدد ملامح القرارات التى تتخذها الهند بخصوص النهج الاقتصادى المستقبلى لها، سواء كانت القضية تتعلق بتشديد القواعد الخاصة بتراخيص المستحضرات الدوائية أو بفتح قطاع تجارة التجزئة أمام الشركات الأجنبية^(٢٥). أيضا نجد أن هذا الحس القومى له تأثيره على وسائل الإعلام، ويظهر بشكل لافت للنظر فى الإعلان التلفزيونى الخاص بمنتج «بان مسالا»^(*) الذى تنتجه شركة راجينجاندا، فى هذا الإعلان الذى يقع مسرح أحداثه فى لندن، نجد أحد ملوك المال والصناعة فى الهند يوقف سيارته أمام المقر الرئيسى لشركة الهند الشرقية ويخبر السكرتير الخاص به أنه يريد شراء تلك الشركة: «لقد حكموا بلادنا لمائتى عام، والآن جاء دورنا لتتولى نحن الحكم».

رومانسية جديدة

إذا كان من الواضح أن الهند فى بعض الأحيان تتذكر شركة الهند الشرقية أكثر من اللازم، فإنه من اليسير اتهام بريطانيا بأنها لا تتذكر الدروس المستفادة على الإطلاق، فخلال فترة ليست بالبعيدة، كان هناك تزامن بين اختفاء شركة الهند الشرقية ماديا من شوارع لندن واختفائها من الذاكرة الثقافية للبلاد. خلال معظم الستين عاما التى تلت خروج بريطانيا من الهند؛ كانت «شركة جون» تعد من الأشياء التى يمكن إيداعها كتب التاريخ، ويثور الجدل بين الأكاديميين حول ما قامت به. إلا أن قدوم عصر العولمة غير ذلك كله وأدى إلى إحياء الاهتمام بما قامت به الشركة خلال العصور الأولى للتجارة العالمية. «شركة جون» التى انتهت منذ أكثر من قرن تمر بكل تأكيد بنوع من الإحياء. إن المعارض التى نظمت

(*) خليط من ثمار الجوز والبذور والأعشاب والتوابل يتم تناوله بعد الوجبات فى الهند، والشركة المذكورة واحدة من أهم وأفضل الشركات المنتجة له فى الهند - (المترجم).

فى دار الكتب القومية البريطانية وفى متحف فيكتوريا وألبرت ، بالإضافة إلى مجموعة من التأريخات الشعبية ، قد أعادت إلى الحياة المكانة التى كانت تتمتع بها الشركة الموقرة ؛ فمؤسسوها يُمتدحون على أنهم مغامرون يتمتعون بالجرأة ، عبروا أراضى العالم بحثا عن التوابل ، ومديروها يوصفون بأنهم «مغول بيض» متعدّدو الثقافات .

أما بالنسبة لمجتمع الأعمال والتجارة ، فنجد أن سحر الشركة يكمن فى نجاحها التجارى الذى يعد نموذجا للاقتصاد العالمى اليوم ، فنجد على سبيل المثال أن مصرف «ستاندرد شارترد بانك»^(*) كان أحد رعاة المعرض الذى أقيم فى دار الكتب القومية البريطانية فى عام ٢٠٠٢ ، والذى كان يدور حول شركة الهند الشرقية ، وكان عنوانه «أماكن التجارة» . وفى ذلك الوقت ؛ خرج رئيس البنك باستنتاجات واضحة من تاريخ الشركة ، وقال إن التحدى الآن هو «بناء الإرث الثقافى الباسل المبدع والقومى بحق لشركة الهند الشرقية»^(٢٦) . كذلك وجد رود إدينجتون - أحد رؤساء شركة الطيران البريطانية فى وقت من الأوقات - التشجيع فى السجل التاريخى للشركة ، حيث ينظر إلى الشركة على أنها دراسة حالة للنجاح الذى تحقّقه المؤسسات الكبرى «عن طريق العمل الجاد وحدة الذكاء والإبهار»^(٢٧) . وقامت إحدى الشركات التى تعمل من خلال الإنترنت بعمل «مصنع افتراضى» على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) يقدم مجموعة من المنتجات التى تحمل علامات تجارية ، وأطلقت عليه اسم شركة الهند الشرقية . إن استخدام اسم شركة الهند الشرقية - وفقا لما يقوله الموقع - «يعطى المصادقية لأى منتج أو خدمة» ويجمع بين «مواضع القوة للعلامات التجارية البريطانية - التقاليد وأساليب الترف العتيقة والطبقة التى لا تخطئ أبدا - وسحر البلاد الأجنبية والإبحار والسفر والمغامرة»^(٢٨) . ومن المثير أن هذه الرؤية المتفائلة بالنسبة لشركة الهند الشرقية ليست مقصورة على الشركات البريطانية وحسب ، فنجد فى ماليزيا أن محل متروجايا يعرض مجموعة من الملابس يطلق عليها اسم مجموعة شركة

(*) بنك بريطانى مقره الرئيسى فى لندن وله فروع فى أكثر من ٧٠ دولة فى العالم ، وله أكثر من ١٧٠٠ فرع ومنفذ ، ويعمل بفروعه هذه أكثر من ٣٧,٠٠٠ موظف - (المترجم) .

الهند الشرقية، والتي تهدف إلى «إظهار والاحتفاء» بتلك الروح التي كانت سائدة عندما كانت الشركات البريطانية والهولندية والفرنسية تتنافس من أجل «تحقيق السيادة في حصاد الأرباح التجارية في منطقة كانت تتميز بالسخاء»^(٢٩).

وينجذب البعض الآخر في بريطانيا إلى الإرث الثقافى للشركة، ويرون أن التلاقى الذى حدث بين الشركة والهند نتج عنه مزيجا من أساليب الحياة، حيث كان التجار الإنجليز يرتدون الملابس المحلية، بل إن بعضهم اعتنق الديانة الإسلامية أو الهندوسية. وقد امتدح ويليام داريمبل على وجه الخصوص «التعددية الثقافية النابضة بالحياة التى تتمتع بها شركة الهند الشرقية» من وجهة نظره^(٣٠)، فنجد أن روايته «المغول البيض» تلقى الضوء على عالم كان فيه التجار الإنجليز يعشقون السيدات الهنديات وكذلك الثقافة الهندية، وذلك من خلال قصة علاقة عاطفية فى القرن الثامن عشر بين أحد مسئولى الشركة وامرأة من الطبقة الراقية فى مدينة حيدرآباد. إن الرسالة التى يبعثها إلينا فى العصر الحديث هى أن ذلك يوضح أن «صراع الحضارات» ليس حتميا وأنه «فى الإمكان التوفيق بين الشرق والغرب»^(٣١). وبالمثل نجد مسلسلا تلفزيونيا وثائقيا مهماً فى بريطانيا خلال عام ٢٠٠١ - «شان هندي» يتحدى الأفكار المسلم بها والتي سادت عن المواجهة التى حدثت بين بريطانيا والهند، حيث يصور علاقة «التعايش» التى نشأت بين الشركة والهند على أنها كانت علاقة مصالح مشتركة قبل أن يفسدها الاستعماريون فى بدايات القرن التاسع عشر^(٣٢).

إلا أن كلتا هاتين الرؤيتين اللتين تتسمان بالرومانسية - الرؤية التجارية والرؤية الثقافية - لم تتطرقا إلى الخسائر التى تسببت فيها الممارسات التجارية للشركة، ففى ذلك الوقت - كما هو الحال الآن - كان يمكن للتجارة أن تجلب ثروة كبيرة، لكنها أيضا تسبب فى البؤس والدمار. إن الذين ينظرون إلى الإمبراطورية البريطانية نظرة مثالية، يتهافتون على التركيز على فكرتى الشهرة والاستهلاك فى قصة الشركة، وكثيرا ما يرسمون صورة وردية وقاصرة إلى أبعد الحدود عن تلك الشركة. ونجد على وجه الخصوص أن النظر إلى الشركة من خلال وجهة نظر ثقافية يجعلنا نتناسى الغرض الحقيقى من وجودها فى الهند. بل إنه من الواضح

أن دار الكتب القومية البريطانية وقعت في هذا الفخ عندما استضافت معرض «أماكن التجارة» في عام ٢٠٠٢. وكان هذا المعرض يركز على الدور الذي لعبته الشركة في نشأة المجتمع الاستهلاكي الحديث من خلال الجمع بين كم هائل من المصنوعات اليدوية، ويبحث في الأسباب التي جعلت بريطانيا «شعبا يشتهر بشرب الشاي» وجعلت «كلمات مثل shampoo (وهي كلمة هندية تعني «مستحضر طبي لغسل الشعر») و rice (وتعني «أرز») و bungalow (وتعني «كوخ») جزءا من اللغة الإنجليزية». وأقر المعرض بالجانب المظلم من أنشطة الشركة، موضحا أن الشركة اشتهرت في الأعوام التي تلت عام ١٧٥٧ «بأنها تنهب ثروات الهند حيث كان موظفوها يقومون بتكديس الثروات لحسابهم الخاص»، ووصف المعرض ذلك بأنه «استنزاف البنغال»، إلا أن تلك الاعترافات ضاعت في الأعم الأغلب وسط التمجيد الذي لقيته الأعماط الاستهلاكية التي كانت الشركة رائدة فيها. وكان المعرض حريصا بكل تأكيد على إظهار شهرة السلع التي كانت الشركة تتاجر فيها في ذلك العصر. إلا أنه كان هناك إحجام عن إقامة صلات على نفس الدرجة من القوة بين قضايا سلطة الشركات الكبرى والتجارة العادلة وحقوق الإنسان، والتي أثرت على التجار في القرن الثامن عشر، وتؤثر بنفس القدر على الشركات متعددة الجنسيات في القرن الحادي والعشرين.

لكن الأهم من ذلك هو أن الخطط الأولية للمعرض لم تأخذ في الاعتبار الموقع الذي ستركه رؤية المعرض عن الشركة على الجاليات المختلفة في بريطانيا، فعندما سمعت الجالية الصينية في المملكة المتحدة عن الإعداد للمعرض أصابها الهلع، وقامت بعمل موقع دعائي على شبكة المعلومات الدولية وأسمته «حقيقة معرض أماكن التجارة» ويهدف إلى التأكيد على المعاناة البشرية التي تسببت فيها عمليات استيراد الأفيون إلى الصين والذي كانت الشركة تشرف على زراعته في البداية، ثم تولى الاستعمار البريطاني تلك المهمة فيما بعد عن طريق الاحتكار^(٣٣). ونجحت تلك الحملة، وتم إضافة لوحة إضافية إلى المعرض تقول إن «التجارة الحرة إلى آسيا كانت تعنى حرية نقل شحنات الأفيون المربحة

والالأخلاقية . لقد انتهت الشركة منذ زمن طويل ، إلا أن المعارك التي خاضتها لا تزال قائمة حتى الآن .

محاسبة « شركة جون »

من المفروض أن ننظر إلى شركة الهند الشرقية على حقيقتها ، وهي أنها كانت شركة تهدف إلى الربح بأى ثمن ، وبأى وسيلة ، جمعت ثروات هائلة وتسببت أيضا في معاناة بشرية كبيرة . وكان معاصرو الشركة واعين تماما لتلك الازدواجية منذ الأيام الأولى للشركة عندما كانت تعمل في تجارة التوابل ، حتى صارت تتولى إدارة الهند بترخيص من الحكومة البريطانية . كانت الإمكانيات الاقتصادية الفريدة التي تتمتع بها الشركة وراء انجذاب كل من البريطانيين والآسيويين إليها ، سواء النساجون الهنود الذين كانوا يرغبون في الحصول على عمل ثابت ، أو التجار البريطانيون المغامرون الذين كانوا يرغبون في تحقيق الثراء والغنى في الشرق . وبالمثل كان الدور الذي تلعبه الشركة والمسلك الذي تنتهجه دائما محل الاعتراض من قبل التجار الذين حرموا من التجارة مع آسيا ، والحكام الهنود الذين كانوا يشعرون بالخوف من النوايا الحقيقية للشركة ، والبرلمانيين الذين كانوا ينتقدون المسلك الذي انتهجته الشركة خارج البلاد .

وعادة ما يحمل المرء بداخله مشاعر بالإعجاب بالشركة وكذلك العداء لها في الوقت نفسه . وتعد مجلة «جتلمنز ماجازين» - إحدى المجلات الإنجليزية الرائدة في القرن الثامن عشر - مثالا على مشاعر الخوف والإعجاب التي كانت الشركة تثيرها في نفوس الناس ، ففي مارس من عام ١٧٦٧ - بعد مرور عام على وصول أنباء حصول الشركة على حق تحصيل الضرائب في البنغال ، والذي يدعى «حق الديوانى» - أعلنت المجلة «أن القيمة الهائلة لهذه الممتلكات الجديدة يمكن أن تفتح لهذه الأمة نبعاً من الثراء لن يؤدي فقط - خلال سنوات قليلة - إلى تسديد الدين القومى وتخفيف الضرائب على الأراضى وتخفيف عبء الضرائب عن كاهل الفقراء بل سيضيف أيضا إلى حصص الأرباح على أسهم الشركة نسبة من العائدات المتزايدة تبهر أوروبا وتفوق أكثر التوقعات تفاؤلا»^(٣٤) . وبعد مرور

شهر واحد فقط أخذت نفس المجلة تحذر من العواقب الوخيمة التي قد تترتب على حصول هيئة تجارية على ذلك الثراء، وتقول إنه سرعان ما ستقوم الشركة «بتكرار نفس الأعمال الوحشية في هذه الجزيرة، تلك الأعمال التي وصمت جبين الإنسانية بالعار، وغمرت سهول الهند بدماء الأبرياء من السكان المحليين». كان كاتب المقالة يرى أن الحل الوحيد هو تخفيض حجم الشركة إلى الحد المطلوب، وفي نهاية المقالة حاول حشد تأييد القراء عن طريق شعار «لتسقط تلك البقية المتبقية من آثار السلطنة غير الدستورية، شركة الهند الشرقية!»^(٣٥).

وقد امتدت هذه الازدواجية لتشمل مديري الشركة أنفسهم، والذين كانوا يراعون مراعاة كبيرة الثقافة الهندية في حياتهم الخاصة، وفي الوقت نفسه يقومون بأعمال استغلال رهيبة لحساب الشركة. وإننا لنجد في مشوار حياة وارين هاستينجس - الذي أصبح أول حاكم عام للهند من الشركة في عام ١٧٧٣ - مثالا واضحا على هذا الصراع بين الثقافة والتجارة. كان هاستينجس يتحدث اللغات المحلية في الهند بطلاقة، وكان خيرا محسنا، وقام بتقديم الدعم المادي لإخراج أول ترجمة إنجليزية للنص الديني الهندوسي «البهاجفاد جيتا»، كما قدم الدعم اللازم لإقامة جامع جديد ملحق به مدرسة للطلبة المسلمين في كلكتا، وأمر بإقامة معبد بوذي على ضفة نهر هوجلي، بل إن نهره نفسه يقول إن «الهند تدين بالعرفان بالجميل» لمديري الشركة من أمثال هاستينجس، وويليام جونز لأنهم ساعدوا في إعادة اكتشاف تراث الهند^(٣٦). إلا أن ما قام به هاستينجس بالنسبة للثقافة الهندية كان دوما يأتي في المرتبة الثانية بالنسبة لدوره في تكوين الثروات للشركة ومساهمتها. هاستينجس هو الذي فرض احتكار الشركة على إنتاج الملح والأفيون في البنغال لتحقيق مصالحها، وهو أيضا الذي أصدر الأوامر لخروج أول رحلة لتهريب الأفيون إلى الصين، متحديا عن عمد الحظر المفروض من قديم الأزل على استيراد الأفيون هناك. وعلى الرغم من التهم الثابتة بالابتزاز والرشوة والفساد، أعلن مجلس اللوردات براءة هاستينجس، بل وشكره بعد محاكمة ماثونية.

بالضبط مثلما يجب أن نحكم على المؤسسات الضخمة اليوم من خلال آثار أعمالها الأساسية وليس من خلال إسهاماتها الهامشية غالبا في الأحداث

الثقافية، فإنه يجب تقييم شركة الهند الشرقية على أساس أنشطتها الأساسية وليس على أساس أفعال الإحسان التي كان مديروها يقومون بها أحياناً. إن الإحجام المستمر عن البحث في المدى الكامل لأثر شركة الهند الشرقية، هو جزء من فقدان الذاكرة العام بخصوص الدور التاريخي الذي تلعبه الأعمال التجارية. ويظل من الغريب أنه بالرغم من أن الشركات هي من بين أقوى المؤسسات في العصر الحديث، فإن كتب التاريخ ما زالت تركز على أفعال الدول والأفراد في السياسة والثقافة، وليس على الشركات الكبرى أو مديريها أو تأثيرهم. ونحن إذا ما كنا نريد أن نفهم على نحو كامل عالمنا الحاضر الذي يتميز بالمؤسسات الضخمة، فلا بد أن نفهم ماضيها وشركاته الضخمة - وهذا يعني الإمساك بإرث «شركة جون». وبالفعل كان بعض من أبرز نقاد هذه الشركة قد توقعوا من أجيال المستقبل أن تنظر مثل هذه النظرة القاسية إلى أداء الشركة؛ فقد كتب ريتشارد كلارك عام ١٧٧٣ يقول: «إن مؤرخي الأمم الأخرى (إن لم يكن مؤرخو أمتنا) سوف ينصفون من أضرتهم الشركة في الهند، وسوف يورثون ذكرى القامعين إلى آخر ذريتهم». وفي المقدمة التي كتبها لقصيدته الهجائية الطويلة الموسومة «النابوب، أو المحتال الآسيوي»، حث كلارك بنى وطنه على أن «يخلدوا ذكرى سخطهم الشريف على أعداء البشرية هؤلاء»^(٣٧).

وبعيداً عن كون الشركة أثراً بالياً، فإنها تعتبر مثالا للمعركة الدائمة داخل الشركات الضخمة بين منطق التبادل والرغبة في السيطرة. وفي استمرارها لمدة قرنين، تصور الشركة أن السعي لتحقيق مساواة مؤسسات الأعمال، هو ممارسة لازمة لتوجيه طاقات التجار والمقاولين، بحيث لا تقوض أهواؤهم الشخصية المصلحة العامة. ونحن نقرب من الذكرى الخمسين بعد المائتين لمعركة بلاسى، فإن الصدام المستمر بين منظوري نشطاء الشركة الضخمة في الهند والرومانسيين الإمبراطوريين في بريطانيا ليشدد على الحاجة إلى بعض من «السخط الشريف» مرة أخرى لكي نستوعب مدى تأثير الشركة. ولنستعير هنا بيتين من قصيدة للشاعر الأردى أسد الله خان غالب، الذي عاش في القرن التاسع عشر، فنقول «بالرغم من أن الجرح كان خفياً، لا يتوقف الدم أبداً عن السيلان».